ربنا ولك الحمد.. يبتدرونها أيهم يكتبها أول

أ. د. فهمي أحمد عبدالرحمن القزاز

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 30/5/2016 ميلادي - 23/8/1437 هجري

الزيارات: 27461

(ربنا ولك الحمد)

يبتدرونها أيهم يكتبها أول

الحمدُ لله، وأفضل الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعدُ:

فالعيش في رِحاب النصوص والتفكُّر فيها نِعمة عظيمة، لا يرزقها إلَّا مَن تفضَّل الله عليه بمنَّته وفضله.

وأضع بين يدي القارئ الكريم نموذجًا لذلك؛ فقد أخرج البخاريُّ في صحيحه عن رفاعة بن رافع الزُّرقي، قال: "كُنَّا يومًا نُصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رفع رأسه من الركعة قال: ((سمِع الله لِمن حمده))، قال رجُلٌ وراءه: ربَّنا ولك الحمدُ حمدًا كثيرًا طيبًا مُباركًا فيه، فلمَّا انصرف، قال: ((من المتكلِّمُ؟))، قال: أنا، قال: ((رأيتُ بضعةً وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيُّهم يكتُبُها أولُ))[1].

وفي مسلم، عن أنسٍ، أن رجُلًا جاء فدخل الصفَّ وقد حفزه النفسُ... فلما قضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال: ((أيُّكم المُتكلم بالكلمات؟))، فأرم القوم، فقال: ((أيُّكُم المتكلِّم بها؟ فإنه لم يقُل بأسًا))، فقال رجُلٌ: جئتُ وقد حفزني النفسُ فقُلتُها، فقال: ((لقد رأيتُ اثني عشر ملكًا يبتدرونها، أيُّهم يرفعُها))[2].

قال ابن الجوزي: وسمعتُ الوزير ابن هبيرة (ت 560هـ)؛ يقول وقد قرِئ عنده هذا الحديث... فقال: فطفقتُ والجماعة عندي أفكِّر في معنى تخصيص هذا العدد من الملائكة، فنظرتُ فإذا حروف هذه الكلمات بضع وثلاثون حرفًا إذا فكَّك المشدَّد، ورأيتُ أنه من عِظَم ما قد ازدحمت الملائكة عليها، بلغوا إلى فكِّ المشدَّد، فلم يحصل لكلِّ ملك سوى حرفٍ واحد، فصعد به يتقرَّب بحمله[3].

وأقول: مجموع كلمات ما قاله الصحابي: ثماني كلِمات، ولو أضيف لها قوله: "سمع الله لمن حمده"، لأصبح مجموعها اثنتي عشرة كلمةً، فرواية البخاري اختصَّت بكتابة حروفها، فكان مجموعها بضعةً وثلاثين حرفًا، ورواية مسلم تطرَّقَت لرفعها للسَّماء، فكان مجموع كلماتها اثنتي عشرة كلمة، فكما كان لكلِّ حرف كتبه ملَك فكذلك كل كلمة رفعها ملَك، والله أعلم بالصواب.

وهذا ليس ببعيد عن رواية العاطس خلف الصفِّ؛ فعن عبدالله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: عطس رجُلٌ خلف النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: الحمدُ لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه حتى يرضى ربُّنا وبعد الرضى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن صاحبُ الكلمات؟))، فقال رجُلٌ: أنا يا رسول الله، فقال: ((لقد رأيتُ اثني عشر ملكًا يَبتدرونها أيُّهم يكتُبُها))[4]، فعدد كلماتها اثنتي عشرة كلمة، فكلُّ ملَك كتَب كلمةً من كلماتها.

وينبغي الإشارة إلى أنَّ الفقهاء رحمهم الله تفنَّنوا في بيان الحكمة من تَشارك الإمام والمأموم في هذه العبادة، هل يطلب من المأموم أن يقول: "سمِع الله لمن حمده" مثل إمامه، ثم يقول: ربنا ولك الحمد، ثم يتلو هذا الدُّعاءَ المأثور؟ لأنَّ الأصل في ذلك أنها عبادة قوليَّة، تُطلب من الإمام والمأموم على حدٍّ سواء، أو أنَّهما يتشاركان في الصَّلاة، فهي كالقسمة في هذا الموضع؛ فالإمام يحرض المأموم للثَّناء على ربِّه، فلا يطلب منه أن يكرِّر ما قاله إمامه.

أقول: وفي كلِّ خير، وله دليله وتخريجه، ولكن ينبغي ألَّا نَنسى أنَّ الأصل في هذا المقام أنَّ الإمام ينبِّه المأموم أنَّ الله يَسمع مَن يحمده ويثني عليه، ومعلوم بداهة أنَّه يسمعه في كلِّ ركن من أركان الصلاة؛ بل في كلِّ لحظة ووقت.

ولكن هنا زيادة تنبيه، أي: يا مَن ركعتَ بين يديه، اعلم أنَّ الله يَسمعك، فأخلص له بالحمد والثناء؛ لأنك ستتوجَّه إلى ركنٍ آخر وهو السجود، قال عنه صلى الله عليه وسلم: ((أقرَبُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجِدٌ، فأكثروا الدُّعاء))[5]، فتقديم الحمد والثناء قبل الدعاء مقصود؛ لأنَّه مسوغ للاستجابة، وهذا ما حثَّت عليه النصوص المتكاثرة في السنَّة، وهو أدَب من آداب الدعاء، فالانتقال من الحمد والثناءِ على الذَّات العليَّة إلى السجود تحريض للعبد أن يَغتنم هذه الفرصة فيَدعو خالقَه ومولاه.

وهذا ما أفهمه من أدب تَرتيب صلاة الجنازة، فتبدأ بالحمد والثناء، ثم بالصَّلاة على رسول الله، ثمَّ بالدعاء فهي مظنَّة الاستجابة، ولعمري إنَّ هذا الصَّحابي الجليل فَقه هذا الملحظ فنطق بهذه الكلمات واستشعَر معناها، فأصبحَت تشريعًا للأمَّة بعد إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، يتعبَّد بها، نسأل الله أن يرزقنا نعمةَ التفكُّر والتدبُّر والعمل بمقتضاهما.

وصلى الله وسلم على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[1] صحيح البخاري (1 / 159): (799).

[2] صحيح مسلم (1/ 419) (600).

[3] ينظر ذيل طبقات الحنابلة (2 / 153).

[4] ينظر: "الآحاد والمثاني"؛ لابن أبي عاصم: (1/ 252) (325).

[5] ينظر: صحيح مسلم (1/ 350) (482).

حقوق النشر محفوظة © 1447هـ / 2025م لموقع الألوكة
آخر تحديث للشبكة بتاريخ : 10/3/1447هـ - الساعة: 11:15